في الكوخ

قصة عن فاندا فاسيلفسكا

« وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف الى النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ ، أهي محكمة القفل ؟ موصدة لا تتهز ؟ »

« جدتي ! اصغي ! جدتي » .

فنظرت « أنيسيا » إلى أعلى . كانت « تنالكا » تناديها من الناحية الاخرى من السور .

« ماذا » ؟

« أتسمحين لي بالمثول دقيقة واحدة »؟

« ليس ما يمنع من ذلك . احضري إذا شئت » . وأخذت « أنيسيا » تتقدم بطريقتها المعهودة .

ما أدفأ أشعة الشمس في ذلك النهار . وأخيراً وجدت عظامها المتصلبة النابضة بالآلام بعضاً من الدفء يتغلغل فيها . شمس يونية الجميلة الشفيقة . ألا ليت الأمطار تمسك ؟ أمّا ما كانت تتوقعه فقد ظلمها وأزعجها قبل أن يقع ! المطر ! كلا كلا . فليس من شيء هو ألعن من أن يهطل المطر . فلو أنه هطل ، إذن لتألم كل جزء من عظامها . تألم بفظاعة . ثم تتورم مفاصلها ، ويستعصي عليها أن تخطو خطوة واحدة . ولكن عند ما تكون الشمس مشرقة ، وبالاخص كما كانت تشرق في ذلك اليوم ، فان الحالة تختلف . فما أبهج شمس يونية وهي تداعب الارض بأشعتها الذهبية .

« جدتي » .

« ماذا بعد » ؟

« أتسمعينني » ؟

« لِمَ لا ؟ طبعاً استطيع أن اسمعك » .

قالت أنيسيا ذلك وهي ماضية تتمتمه عجباً . ان هذه الفتاة تطلب شيئاً على الدوام . لماذا لا يتركون عجوزاً مثلي تستريح في سلام ؟ ان مثلي لا يطلب من الحياة مزيداً ؟ قليلاً من سلام النفس يكفيني . بضع ساعات فقط قبل أن يحضرني الموت ، الموت الذي هو آخذ طريقه نحوي » . في هذا اتجهت أفكارها .

عادت تنالكا قائلة : « جدتي : انظري إليّ » .

فرفعت العجوز جفنيها الثقيلين نحو الفتاة بانتباه ، وثبتت عيناها الفاترتان وكأنهما

مغشاتين برق خفيف

« جدتي : إن الألمان قادمون » .

هزت أنيسيا كتفيها . لقد سمعت هذه الاخبار منذ أيام مضت . كانوا قادمين ! أقادمون هم ؟ حسناً . وماذا يحدث لو انهم قدموا ؟ فان الألمان ولا شك سيتركون حزمة من العظام مثلها تموت في سلام . إذا كانوا قادمين ، فليكن ذلك ! الألمان — رنت هذه الكلمة في أذنيها وكأنها شيء بعيد من عمرها. وفي الحقيقة ، لم تنقل إليها هذه الكلمة أي معنى . أهمّ من ذلك عندها أن تتشمس وتشعر بالحرارة اللذيذة تسري في عظامها الموجعة . الألمان — فليهتم صغار السن بالألمان ..... أمر لا يزعج عجوزاً مثلها حطمها الزمن

« جدتي : اننا سنغادر هذا المكان ونمضي إلى الغابة » .

« حسناً . اذهبوا إذا شئتم . أي شيء يعنيني في ذلك ؟ لست ذاهبة معكم » .

فأمسكت تاتالكا بذراعها وقد ذهب صبرها ..

« كلا لا تفعلي ذلك . إنه يؤذيني . والآن ، ماذا تريدين مني ؟ » .

« جدتي . جدتي . تفضلي واصغي إليّ ، دقيقة واحدة » .

« إني مصغية »

« أتسمعينني »

« نعم . ماذا تريدين » ؟

« جدتي . نحن ذاهبون الى الغابة . والدي ذاهب معنا وأنا أيضاً . وكذلك كل من هنا » .

« حسناً . اذهبوا إذن . ان الألمان قادمون . هل هم قادمون حقيقة ؟ من الطبيعي أن تطيروا إلى الغابات . أما أنا فسوف أظل هنا ... أتشمّس »

« جدّتي : إن في حديقتنا رجلين من جنود الجيش الأحمر »

« اثنان ... ماذا ؟ »

« اثنان من الجيش الأحمر . أتفهمينني »

« نعم . ولكن ماذا يطلب مني إزاء هذا الأمر »

أخذت الفتاة تهزها بيأس ممسكة بكتفيها.

« جدّتي : انك في سنة من النوم مرة ثانية . اجتهدي ألاّ تنامي »

« اني لا يأخذني النوم . وانما يهوم النعاس بجفوني لا أكثر »

« جدّتي . أأنت مصغية إليّ . في حديقتنا رجلان من جنود الجيش الاحمر . تحت نافذتنا ، بمقربة من شجر البرقوق »

«حسناً وماذا بهم . أفتنت بأحدهما ؟ »

تنفست تاتالكا الصعداء يأساً وقنوطاً ، فجلست القرفصاء تلقاءها ونظرت في تينك العينين الغائرتين اللامعتين بغشاوة المرض والزمن ، وأفصحت لها بصوت عالٍ ، مخرجة كل لفظ بعناية تامة ، ضاغطة على الحروف حتى تبين تماماً .

« جدّتي . ان في حديقتنا رجلين من

جنـد الجيش الأحمر . أنهمـا جريحين ، ولا أستطيع أن نأخذهما معنا . انهما مريضين حتى لا يستطيعان الحركة . أتفهمين .

« نعم . نعم أفهم . ينبغي أن يخرجا في الشمس »

« ولـكنهما يا جدتي جريحين . فيهما جراح بالغة . أتفهمين ؟ وجميعنا سنجلو إلى الغابة . وقد يقدم الألمان أي وقت الآن . جدتي . هم في حاجة الى من يأتي لهما بشربة ماء . أعطيهما شيئاً من عنايتك . أتفهمين » ؟

« ليس فيما قلت شيئاً يفوت الفهم ! أفيما قلت شيئاً من ذلك ؟

«أفي استطاعتك أن تعني بهما ذلك » ؟

« لمَ لا ؟ ما دامت الشمس مشرقة ، وعظامي لا تدق بالألم ، فسأخدمهما بكل عناية »

« انك لم تنسي بعد أين هي مخبأهما ؟ »

« كلاّ . بالطبع لم أنس »

« إذن فستعني بهما »

« نعم . نعم . سوف أنظر في أمرهما »

« ولـكن كوني على حذر . ان الألمان لا ينبغي أن يلحظوا شيئاً » !

« سوف لا يلحظون شيئاً أبداً . ولم يتعبون أنفسهم في متابعة امرأة عجوز ؟ سوف أتظاهر بأني أطوف على غير هدًى هنا وهناك ، حتى أمر بأشجار البرقوق — فأمر بأشجار البرقوق ... »

« بحقك لا تنسي يا جدتي » .

« وكيف أنسى ؟ اثنان ! أ كذا قلت ؟ هما في حاجة إلى الماء ... وإلى إنسان يوتر مضجعيهما ... وأشياء أخرى من هذا القبيل . قليل من الطعام ، على ما أتخيل . ذلك ما سوف يطلبان ؟

هنا أخذ الفرح من قلب الفتاة .

« نعم . نعم ياجدتي . غير أنهما لا يستطيعان أن يأ كلا الآن ... الشقيان : ما أتعسهما . ولـكن بعد مضي يوم أو يومين ... ربما .. عند ما يشعران بأنهما أحسن قليلاً »

« سأفعل ما في وسعي . سأحدر اليهما قليلاً من الخبز وبُلغة من شيء آخر . سأعني بهما » .

« ومتى تذهبين اليهما » ؟

« إني ذاهبة الآن ... وبعد قليل سأعود اليهما . لا تقلقي . فكل شيء يجري حسب مرامك » .

« لا تنسي » .

عند ذلك أخذ الغضب من العجوز فاحتدت قائلة :

« لقد أوسعتني وقاحة . تذكري مرة وإلى الأبد أن جدتك أنيسيا إذا وعدت بشيء فإنها تحتفظ بكلمتها . ماذا يقلق بالك ؟ أتظنين أن جدتك أنيسيا حزمة قديمة من العظام لا منفعة فيها ولا قيمة لها ؟ لا شيء من ذلك ..... ما دام هناك شمس مشرقة فإني أستطيع أن أعمل عملاً » .

وبقت تاتاكا على اليد المرتعشة المجعدة بحنو

« حسناً . استودعك الله يا جدة . أكاد أكون متأكدة من أننا سوف نعود سريعاً. ولكن في الوقت الحاضر ينبغي أن نختفي ونبدو غامورا . سنظل رقيبهم من الغابات »

وتمتمت العجوز . « هـذا حسن . . . من الغابات . . . لا تقلقي سوف يكونان بخير وعافية عندما تعودوا . . . . سوف لا أنسى تنبيك . »

وارتفع صوت من الناحية الأخرى من السور !

« تنالكا ! أين أنت ؟ تنالكا ؟ »

« إني قادمة يا أبي ! إني قادمة » .

وأشرقت قدماها البيضاوان في ضوء الشمس . وهزت أنيسيا رأسها .

« كأنها معزاة مرحة صغيرة . حسناً ، أيتها العظام القديمة — لقد حان الوقت الذي تمشين فيه بالتنيين . . . . . »

جهدت حتى انتصبت على قدميها . ولا بدّ من جهد تبذله حتى تقوم . فإذا قوّمت ظهرها حملتها قدماها الوجعتان إلى حيث تريد واستندت بصلابة على هراوتها ومضت تطوف في الحديقة وتطلعت عيناها النصف مكفوفتين في ممرات الحديقة تحت أشعة الشمس وهي بها خبيرة . تطلعت فإذا بها تتخيل أن جميع الممرات مغلقة غير مطروكة . لقد عاشت هنا ، في هـذه البقعة . كم من السنين ؟ تسعين . واحداً وتسعين . . .

« كلا . لقد ضللت . لقد أثقلتني السنون الطوال . كم مرّ بي منها » ؟

دارت من حول السور ودخلت حديقة جارها ، والد تنالكا . وكانت أشجار الزيزفون في الركن هنالك بعد صفوف عباد الشمس والقنب ودغل التوت . الظليلة . . . بناء متداع مسقوف بالحطب والبوص . . . . مغمور في أغصان ملتفّة وأماليد كثيفة . واستدارت من حوله لتجد المدخل .

يصعب أن تعثر به . لقد أمعنوا في تنكيره حتى ليتعذر أن تجده .

جريحان مستلقيان هنالك على القش . جثت العجوز ونظرت إليهما .

« لماذا . ارحمنا ! إنهما ما يزالان في ميعة الشباب » .

ـ تنبه أحد الجريحين من الغفوة المحمومة التي أخذته ورفع رأسه المعصوب .

صاح : « من هنا » ؟

« صه . صه . إنها الجدّة انيسيا جاءت لتراكما . ارقدا ساكنا وكن مستريحا »

« ماء » .

« ماء . بالطبع سأحضر لكما بعض الماء يا ولديّ . سأحضر لكما كل ما أنتما في حاجة إليه » .

« لم تعرف تلك العجوز الفانية من أين أتتها العافية . وقف الألم الممض الذي كان يعصر قدميها عصراً . لديه ، فأخرجت من البئر قليلاً من الماء وملأت منه صواعاً وعادت إلى الحديقة ، ثم إلى الظليلة يُبعْد

أشجار البرقوق .

« هوذا . اشرب ، اشرب يا بنيّ . ماء زلال رائق بارد . جئت به من بئرنا . إنه حقيقة مما يرد الحياة وليس ككل ماء » .

كان الجريح الآخر يتململ في حمى تقرع أوصاله وترض مفاصله . فبلت خرقة ووضعتها من فوق جبينه .

« وهكذا! قد يتفق أن يكون جسد منهوك متداع بالتقدم وبالزمن ذا منفعة ... وتالله ... ويح الطريقة التي اتبعتها معي !

... ويحها من طريقة! من ذا الذي يجهل أن المريض يحتاج إلى شربة ماء ... وأنت يابني أرقد في سلام وأرح نفسك . احتمل بصبر يوماً أو يومين . سوف تتحسن حالك بعدهما»

وضعت الصواع بجوار الجريحين ودلفت من ثمّ إلى صومعتها فلما بلغتها ، جلست ثانية على درج الباب وأغمضت بعد أن أتمتها واجبات ذلك النهار . لقد ظلت نائمة حيث هي طوال الوقت شاعرة بطنين الذباب المتكامل من حولها وبحرارة الشمس وبالنعمة التي تغشاها من الدفء الذي نمته الشمس في جثمانها . ولكن برودة المساء أيقظتها . وبجهد جاهد انطلقت نحو الجريحين ، ثم عادت إلى صومعتها «حسناً. لقد مرّ بي النهار في النهاية ... وفي الغد ! سيكون الغد يوماً مشرقاً صافي الأديم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني دخل ثلاثة قادمها . أما الجدة أنيسيا فلم تأبه بهم أي شيء . ماذا يهمها من الألمان ؟ بعد أيام قلائل قد يأتيها الموت ... ذلك الموت الذي تلكأ طويلاً على الطريق

انتظرت هادئة . وكانت تسمع أصواتاً خشنة تنطلق بلغة غريبة عنها . فلندعهم يثرثرون. ماذا يهمها ؟ انها لن تفهم شيئاً منهم

نادوهـا . فابتسمت بطيبة قلب ، واجتهدت في أن تفحص عنهم بنظراتها لعلها تعرف أي أناس هم . نعم . هنالك ثلاثة منهم . ثلاثة رماة ، لا يكبرون الفتيين اللذين يرقدان في الظليلة — هنالك في الركن الأبعد من حديقة جارها . وسرعان ماشغلتها فكرة . أيوجد في الصواع قدر كاف من الماء ؟ أما لو ذهب هؤلاء وتركوها في سلام .

لقد حان الوقت الذي ينبغي أن يعنى فيه بأمر الفتيين. نعمْ. ستفعل ذلك عكر ودماء. باحتيال . وسوف لا يشتبه في أمرها أحد فمن ذا الذي يهتم بعجوز تقعد حتى عن المشي والسعي لحاجتها ؟

نادوها . ثم نادوها صارخين ، ثم ذهبوا. ظنت أنيسيا أن هذا آخر ما تزام . ولكنها ما كادت تهم عن درج الباب حتى ملأ الالمان الفناء .

« أهذه صومعتك » ؟

رفعت ذراعها لتقي عينيها وهج الشمس . كان أحدهم يكلمها بالاوكرانية — بلغتها الاصيلة ، ولكن الكلمات كانت تخرج من فمه خشنة لا عذوبة فيها . وفهمت بالضرورة كل ما قال

ولكنها لم تجد من نفسها رغبة في الكلام. ولكن الضابط أخذته الحدة. « تكلمي ! أهذه صومعتك » ؟

« صومعتي ! لماذا » ؟

وأخذ الضباط يتناجون. ولكن أنيسيا كانت في ثورة من الغضب الحاد، لأنهم حالوا بينها وبين الشمس، ومضت تخرج أنفاسها بشدة، فكان لها زفير.

« ما هذا ؟ » .

« لا شيء. انه لا شيء » .

« افتحي الباب » .

« لماذا . انه مفتوح » قالت ذلك بعجب يمازجه الغضب.

صاح فيها المترجم. « افتحيه إذا أمرت بذلك ».

بكل بطء، وبكثير من التأوه والتوجع جاهدت حتى قامت على قدميها، ثم مالت بصلابة على هراوتها ودفعت الباب فانفتح على مصراعيه ودخلت الصومعة. فازدحم الضباط من ورائها.

« انها صومعة صغيرة مكدسة بالأشياء». ذلك ما لاحظ الكولونيل مقطباً وجهه.

« يمكن أن تفتح النافذة » . فاندفع أحد صغار الضباط نحو النافذة ودفع مصراعيها، فأحدث دفعهما بتلك الشدة جلبة جلجلت في الحديقة النضرة المبللة بندى الصباح.

قال الملازم : « سلها أين ذهب الأهلون » ؟

وقفت أنيسيا حيث كانت متوكئة على هراوتها تتأمل هؤلاء الغرباء في صمت عميق.

« كيف أعرف أين ذهبوا » ؟ وهزّت كتفيها للمترجم عندما وجه لها السؤال.

« إني عجوز فانية ، وقلما أخرج من الدار » .

« هل تبيتين وحدك هنا » ؟

« نعم . وحدي . عشر سنوات مضين الآن وأنا وحدي . لا أحد معي » .

تركوها في سلام . ولكنهم احتلوا المنزل وتبوءوا كل مكان فيه : الرفوف والمقاعد والفراش وبدءوا يتكلمون في أمر ما صاخبين . ظلت هي حيث كانت برهة ما ثم اتجهت نحو الباب . ولكن يداً ثقيلة سقطت على كتفها وجذبتها إلى الوراء . فتحققت أنهم لن يسمحوا لها بالخروج من الصومعة . وأخذ الملازم يناقش في شيء ما مع المترجم . واستمر نقاشهما برهة غير وجيزة .

« انتبه إليها ولا تغفل . قد تكون امرأة عجوزاً عمياء . ولكن الشيطان وحده يعلم ما تخفي وراء ذلك . قبل أن تعرف ما هي ، قد ترسل نبأ إلى ناحية ما بأننا هنا . وأوامري تقضي بأن لا تتركوها تخرج من الصومعة . ألقوا عليها نظركم باستمرار ، ولا تغفلوا عنها برهة واحدة » .

فلما أعرب لها المترجم عن انها لا بدّ من أن تظل في داخل الصومعة دائماً ، نفضت أنيسيا رأسها علامة الفهم مرات . أي فارق عندها ؟ لقد أمرت أن تظل في داخل

الصومعة . إذن فلتظل في داخل الصومعة .

تسلقت سطح الوقد حيث فراشها وأغفت . أما الألمان فكانوا يتكلمون صاخبين في داخل الحجرة ، وقد بسطوا على المائدة بعض الخرائط ومضوا يتفاحصون ويصفرون ، وأرض الغرفة تقعقع تحت ثقل أحذيتهم ذوات الدسر الحديدية لم تأبه بشيء من ذلك . وظلت في غفوتها ، والذباب يطن من حولها ، والأبواب تجلجل ، والجند يخرجون ويدخلون مسرعين . كل هذا كان يصل إلى حسها كما لو كان من وراء ضباب كثيف ، فإن جسمها كان واقعاً تحت سلطان ذلك الخدر الذي يسبق النعاس .

ولكن القلق ساورها عند ما جنّ الليل . فهنالك في الظلمة الخفية وراء أشجار البرقوق قد يحتمل أن لا يكون في الصوامع نقطة ماء . والفتيان ؟ لا شكّ في أنهما ينتظران الجدة « أنيسيا » بفارغ الصبر . ولا ينتظر أن يكونا قد عرفا ما هو واقع في ذلك المكان . وكل ما يتبادر لها أن العجوز قد نسيتهما ، وأنها أكسل من أن تأتي بحركة ...

كانت حينذاك في تمام اليقظة والتنبه ، متطلعة إلى كل ما يحدث من حولها في الحجرة . تجمعوا من حول الباب ، ولكنها كانت تراهم يروحون ويغدون في المشي . أيقف حارس إلى جانب الباب يلاحظه ؟ كلا . ليس من فرصة للخروج ملائمة بحيث لا ترى وانزلقت هادرة من فوق الوقد

« إلى أين أنت ذاهبة » ؟

جلبة قالها المترجم وقد ظهر فجاءة ، كما لو كان قد خرج من الأرض . فردّت عنها يده قابضة بطرف هراوتها .

« والآن : كفّ عن هذا . . . لي أن أخرج بعض الأحيان . ألا تفهم » ؟

رجع عنها ، ولكنها لاحظت أنه يتعقبها . فهزت كتفيها صامتة .

« حسناً . أأقول إن الألمان يخشون امرأة عجوزاً ؟ وعلى الرغم من هرمي ، فأني أقدر أن آتي عملاً . كذلك هم يظنون . حسناً جداً . راقبني . راقبني »

عادت أدراجها إلى الكوخ ، وقبعت في مكانها من فوق الوقد . كانت مشفقة على الفتيين . وكانت الفكرة فيما تجثم على صدرها . همس في وعيها هاتف وكأنها تقول كان من الممكن أن تتمكن « ناتاشا » الصغيرة من التسلل إلى الخارج . أما أنا ... جسد متهدم عتيق مثلي . ماذا أستطيع أن أعمل يا ولديّ وهم لا يسمحون لي بالخروج إذا أردت . هم يدرجون من ورائي كما لو كنت مَنْ . . مَنْ ذا يعلم إلا الله ... من أنا . والآن : ماذا أفعل . ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

ومضت تتقلب في فراشها قلقة ، ترسل أنفاسها دفينة قوية .

فلما هوّم النعاس برأسها وأخذتها غفوة حلمت بهما . كانا يطلبان ماء ... يتوسلان . يطلبان الماء ، ولكن ليس هنالك قطرة واحدة في الظلمة . إنهما يناديانها . يناديان الجدة

أنيسيا . والجدة أنيسيا لا تحضر . لقد أعسر الرباط عن رأس أحدهما ، وليس من يسعفه بردّه حيث يجب أن يكون . انهما يشكوان إلى ناتالكا من أن الجدة أنيسيا لم تلزم كلتيها ، وان ناتالكا تشير اليهما مهددة بطرف أصبعها معبرة عما يجول في رأسها . يا لله . انهمرت الدموع من عيني انيسيا لعنف ما سمعت . يا لله . انهما يصرخان بحدة ، يطلبان الماء . كانا يصيحان بصوت عال ، حتى فزعت انيسيا من نومها ، وشعرت أن شيئاً غير مرغوب فيه قد حدث . تألمت من فوق الموقد ، ولكن خيل اليها أنها ما تزال نائمة .

كان الضباط جالسين من حول المائدة ، على المقاعد ومن حول الفراش . وكان في مواجهتهما الفتيان صاحبا الثاليلة والقفاز ومن حولها نطاق من الجند . خيل إلى الجدة انيسيا أن ذلك الرمد الذي أخذ يغشى على عينيها منذ سنوات قد انكشف عنهما فجأة . رأت كل شيء بدقة لم تتعودها منذ أعوام طوال . يا للعجب . هاهي ذي ترى القفاز على رأسيهما وأرجلهما وأذرعتهما . وهاهي ترى ما في قسمات وجهيهما من التعبيرات . كانت عيونهما تلمع بأشعة محمومة هاذية . رفعت انيسيا رأسها عن فرق الموقد ، وأظافرها الحادة تقطع راحتيها غيظاً ، وانما فعلت ذلك لتنصرف بهذه الحركة عن البكاء بصوت مسموع .

جلس الكولونيل في وسط الحلقة ، مستلقياً على مقعده بعظمة ، وخياله يتراءى رواحاً وجيئة على حائط البهو كلما تحرك . وكان مصباح الغاز يلقي ضوءه الى أسفل ، فكانت عينا الكولونيل تتواريان في حدقتيهما الغائرتين . وكان المترجم واقفاً إلى جانب المائدة على مقربة من الجريحين . سأل الكولونيل سؤالاً ، فأعاده المترجم بلغتهما ، ولكن بصوت أجش كريه .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

وكانت الجدة أنيسيا تستطيع أن تسمع بدقة ، كأنما تلك الصداوة التي سدت أذنيها سنين ، قد زالت في لحظة . وكانت تصل اليها السكنات واضحة بيّنة ، على صورة لم تعتدها أياماً طوالاً .

حتى أنفاس الجريحين المترددة العميقة ، كانت تصل سمع « أنيسيا » وهي مستجمعة من فوق الموقد . كانا يجاهدان في سبيل التنفس بقوة من فميهما اليابسين . كانا يترنحان ، ولكن أيدي الجنود الألمان كانت تسندهما بقوة وخشونة ، ليثبتا بمكانهما .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

لم يجيبا . وقرع الكولونيل بيده على المائدة بشدة عنفاً .

« قل لهما اني لا أحتمل شيئاً من هذا الهذر . أهذا واضح ؟ قل لهما ان نصيحتي ونصيحتي الخالصة ، أن يتكلما . عرفهما ان لدي طرق خاصة لأمثالهما . سلهما من

أي الوحدات هما ، ومتى نزلت الوحدة هنا ، وإلى أين ذهبت ، ومن أين أتت ، وأين الجيش ، وأين سكان القرية . وفي أي المعارك حاربا ؟ هذا ما أطلب . ابتدىء ! »

أدركت أنيسيا من صوته ما فيه من تهديد ووعيد . شعرت بأن قلبها يدق وكأنه سينفجر . دق قلبها دقات قوية لم تعهدها من قبل سنين طويلة ، وخيل إليها أن أولئك الجالسين من حول المائدة سوف يسمعون هدير تلك الثورة القائمة في صدرها . ولكن لم ينظر نحوها أحد منهم . كانت كل العيون متجهة إلى الفتيين الواقفين أمام المائدة ، تسندهما أيدي الجند الخشنة القاسية .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

تنفس الفتى المشجوج الرأس طويلاً وبعمق . وانتظرت الجدة أنيسيا الجواب ، وهي تنتفض من قدميها لفرق رأسها .

« سوف لا أجيب » !

« إنك لا تجيب . حسن . إليك ياهنس ساعده حتى يخرج . إنه لا يستطيع أن يخرج الكلمات من بين أسنانه . اذهب وخذ بيده »

رفع الجندي يده وضرب الجريح الروسي على وجهه بجمع يده . ارتدت تلك الرأس الجريحة إلى الوراء . الرأس التي تغشاها تلك اللفائف القذرة الدامية . ولكن الجريح استجمع إرادته وبذل جهد الصابر فتماسك ولم يتضعضع .

« سوف لا أخبرك » !

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف » .

« أنت لا تعرف ، إليك ياهنس . نبه ذاكرته . أيقظها ! إن الفتى المسكين قد نسي ولكننا سنجتهد حتى يتذكر . نعم : سنعمل غاية جهدنا حتى يتذكر » !

تبع ذلك ضربة على الفك ، ثم ثانية وثالثة : وظهرت على اللفافة قطرات من الدم الجديد : وبجهد عظيم كتمت أنيسيا عواطفها فلم تصرخ ، وحبست صوتها المتهدج في حنجرتها الواهية .

« أين القرويون » ؟

« لا أعرف : لم أر منهم أحداً » .

وفي سورة من الغضب لوى الكولونيل حزمة الاوراق التي كانت أمامه على المائدة وأخذ يفركها بأصابعه .

« إنه لم ير أحداً منهم ياهنس . تصور . إنه لم ير أحداً منهم . تقدم إذاً وأر له عينيه . أتفهم . خذ بيده حتى يستطيع أن يرى » .

سقط رجل الجيش الأحمر على الأرض . وانتصبت أنيسيا . كلا . لن يكون ذلك . إن عينيها المتقدتين تغرران بها ! فقد استل الجندي سكينه وجاس آخران على صدر الرجل المنطرح على الأرض ، وبكل تؤدة وثبات أولج الجندي هنس ذلك النصل المحدود في عين الجريح اليسرى . وسرى إذ ذاك عويل وحشي ملأ جو المكان ثم سكن فجأة .

« أين الجيش »

« لا أعرف سوف لا أخبرك . إنك لن

تعوز إلى شيء مني » — كان هذا جواب الفتى الجريح ، ولكن إصرت عميق شديد جاف. وانحدر الدم من الحدقة المفجورة إلى فمه وقام الكولونيل من مكانه وانحنى على الرجل المحتضر وارتسمت على وجهه أمارات دلت على الدهشة والعجب ، ثم ركل الجسد الهامد بطرف حذائه

« اسأله للمرة الأخيرة هل هو مجيب » ؟

وانحنى المترجم على الفتى الممدود على الأرض. وسمعت الجدة انيسيا صوت الدم يحشرج في صدره . ومن خلال ذلك الصوت الكريه استطاعت أن تسمع بضع كلمات تخرج بتثاقل وجهد ، مختلطة بأنات الألم ، وكأنها تسمع :

« أيها الرفقاء ، هيا ، تقدموا مسرعين الوقعة الأخيرة ، فلنتقدم » .

« ماذا . ماذا . ماذا يقول » . سأل الكولونيل باهتمام .

« لاشيء » .

« ماذا تعني بلاشيء . إنه قال شيئاً ؟

« قال شيئاً غير مفهوم » .

« اقض عليه إذاً » . بذلك أمر الكولونيل .

« فرفع الجندي منكبيه » .

« لا ليس هنا . خذه في الخارج » .

فأمسك الجندي بذلك الجسد الهامد من تحت الإبطين وجره نحو الباب . ورأت انيسيا رجليه الواهيتين تسحقان من فوق الأرض فتتركان أثراً من الدم في طول الحجرة

جلست حيث هي ، ويدها على قلبها ، كأنما هي تثبته مكانه . وتراءت خيالات تطرد على الحائط . هنالك كان الفتى الثاني واقفاً أمام المائدة . كان يتمايل ضعفاً . ولكن أيدي الجند الخشنة كانت تعضده .

« سلة »

سترت أنيسيا رأسها تحت الغطاء . وسدت أذنيها حتى لا تسمع ، وغمضت عينيها بيديها حتى لا ترى ، ومع تنهدة خرجت من أعماق نفسها لعنت مصيرها الذي جعلها تعيش الى التسعين أو ما فوقها حتى أوصلها الى هذه الليلة الليلاء . لعنت عينيها لأنهما لم يفقدا ضوءهما ، ولعنت أذنيها . لماذا لم تفقد عيناها البصر ، ولم لم تفقد أذناها السمع ؟

ومن خلال الغطاء استطاعت أن تسمع الرواية الاولى تتكرر ، الصرخة الداوية ، وأنات الألم العميقة .

« لا أعرف ، سوف لا أخبرك » .

ساد السكون . ومضت برهة لا تستطيع فيها أن تمد رأسها من وراء غطائها لتتطلع وبعد لأي مدت رأسها بتلبث . ان الألمان يتأهبون للنوم على ما يظهر . انهم يخلعون الأحزمة والأحذية . لقد أغلقوا المصاريع الخشبية على النوافذ وأقفلوا الباب ، وعسكر الجند في خارج الصومعة ، وظل حارس يذرع الأرض رواحاً وجيئة أمام الباب ولكن الضباط على ما يظهر لم يكن لهم ثقة بأحد . فقد امتحن الكولونيل بنفسه قفل الباب

وجس الباب والنوافذ ، واقترب من المرقد ليرى العجوز . أنائمة هي ؟

أقفلت أنيسيا عينيها ، وتنفست بتخاذل وهدوء ، كأنما هي نائمة .

وأطفىء المصباح . وأخذ الزمن يمضي ببطء وهوادة . يا لله . كم هو بطيء ذلك الزمن . وفي ظلام الحجرة الخفيف الضئيل ، كانت الثواني كأنها الاحقاب . أحقاب الأزل . لقد وقف الزمن فلا يتحرك . وكانت إذراعا أنيسيا وقدماها كأنها قدة من الثلج ، وقد نضح جبينها بعرق بارد مثلوج . وانحدر العرق إلى ظهرها ! لا بد لها من أن تتحمل فعلتها . نعم هذا قضاء .

كان بعضهم يغط غطيطاً . وجلست أنيسيا من فوق المرقد ، وخيل اليها أنها قد ترى في ذلك الظلام الدامس ، وأن كل حركة تأتيها قد تسمع ، وقد تنم عنها . ولكن الاثنان كانوا في نوم عميق . وكان غطيطهم منبعثاً من أنحاء المكان . هنالك هم يرقدون . متقلبين على فراش خشن من القش الجاف . ونام الكولونيل في المهد ومدت أنيسيا إحدى رجليها بحذر من فوق المرقد وانتظرت أما لو سكن قلبها عن ضرباته تلك . حتى هذه الضربات لا توقظهم . ولكن لا . انهم في غمرة من النوم . النوم العميق الهادىء الذي تطلبه أجسام انهكها التعب . وأخذت أنيسيا طريقها نحو الباب . ومن ثقبه أخرجت المفتاح بخفة ومن غير أن تحدث صوتاً . ثم مضت تحكم قفل الرتاج من وراء كل نافذة . أية قوة كانت مختزنة حتى تلك الساعة في اليدين الواهيتين المرتعشتين ! والآن وقد أحكم قفل الباب والنوافذ ، وسدت جميعاً بإحكام ، فليس في استطاعة أحد أن يدخل الصومعة ليقلق النائمين أو يوقظ الضباط

انتظرت دقائق ، ثم استدارت بخفة من حول المائدة ، نعم ، كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، إنها مملوءة حتى القمة ، لقد أتت بها تاتالكا من المخزن قبل ذهابها وتركتها هنالك ، إنها ملآنة .

وشدت العجوز السدادة ، ومن غير أن تحدث أي صوت انحنت على الفراش ، وصبت قليلاً من الكيروسين على القش عند قدمي الكولونيل ، ثم ارتدت بخفة خطوة واحدة وصبت بحذر وبطء مثلها على الأرض حيث كان يرقد الضباط ، ثم على العتبة ومن حول الحجرة بأجمعها .

كان كل شيء جاف . الجدران والأبواب والمصاطب . منذ كم من السنين وقفت تلك الصومعة حيث هي ؟ كان قوامها الخشبي جافاً كالهشيم ، نعم ، الهشيم . طبعاً كالهشيم .

وبأصابع مرتعشة فتشت عن الثقاب تحت الغطاء ، وخيل إليها أن شعلة الثقاب قد رنت رنين طلقة نارية ، ولكن كل شيء كان هادئاً داخل الصومعة ، اللهم إلا غطيط الرجال النائمين مطرداً تلقائياً ، رجال أخذهم سلطان نوم عميق . وقربت الثقاب المشتعل من أرض

الحجرة ، ثم شعرت بأنها لا تقوى بعد ذلك على الحركة . وامتد اللهب بسرعة في الهشيم الجاف ، متلويًا كأنه أفعى هاربة .

لم تستطع أنيسيا أن ترفع بصرها عن ألسنة النار ، ولم تشعر بأن ثوبها المشبع بالكيروسين قد اشتعل .

وبعد قليل نهض أحد النائمين صائحًا ، ولكن الصومعة كانت طعمة للنار الحامية ، التي اندلعت ألسنتها ، وكان أحدهم يعمل في الباب ليفتحه .

وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن اندلف في النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ : أهي محكمة القفل ، موصدة لا تقتحم ؟

وصايا صحية

الفاكهة في الغذاء اليومي

من الناس من يأكل الفاكهة بعد وجبة كاملة ، إذ تكون الشهية متخمة ، والجسم مرهق بالتعب . وآخرون لا يتناولون الفاكهة حذر الإسهال ، وقليلا ما تسبب الفاكهة هذا المرض اللهم إلا إذا كانت قد تجاوزت حد النضج أو كانت في تخمر . وقد تسبب الفاكهة بعض الأحيان قليلا من المتاعب إذا أكلت بين الوجبات وفي وقت غير مناسب . وينبغي أن تؤكل الفاكهة كجزء متمم للطعام ، فإذا كانت ناضجة نفعت ولم تضر .

الاحتياط في تناول الطعام

يعيش أكثر الناس على نصف ما يأكلون تقريبًا ويرهقون طاقاتهم الحيوية بإرغام الجهاز على التخلص من النصف الآخر . في حين كان من الواجب استخدام الطاقة المفقودة في الجهد العقلي أو الجسماني . والسبب المباشر لسوء الهضم هو تلك العادة الكريهة . عادة الجلوس إلى الطعام لأن وقته قد حان . ثم نغرى بالألوان اللذيذة فنأكل ونمتلىء في حين أن إباء الشهية وعدم الشعور بالجوع هو نذير الطبيعة يوحي إلينا بأن الأكل غير ضروري .

إن آلافًا من الناقهين قد سارعوا إلى قبورهم بإغراء أصدقاء جهلاء أخطأوا الحسن قصد. ذلك بأنهم قد يشجعونهم على تناول الطعام والشراب ، ظانين أنهم بذلك يستردون قواهم ، فيفقدون كل شيء .